﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾

[الروم: 56 - 57]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ردُّ أهلِ العلمِ والإيمانِ على منكري البعثِ تشنيعٌ وتغليظٌ وفضحٌ لكذبِهم

لَمّا ذكرَ اللّهُ سبحانَه مقالةَ المكذِّبينَ بالبعثِ وإنكارَهم مُدَّةَ لُبثِهم في الدُّنيا أو في القبورِ، وجدالَهم في هذا الشأن بما يبيِّن جهلَهم وانصرافهم عن الحقِّ، أتْبَعَهُ سبحانَه ردَّ مَنْ آتاهُم اللّهُ العلمَ والإيمانَ على هذه الفريةِ المدَّعاة لبيانِ البونِ الهائلِ بين أهلِ العلمِ والإيمانِ وأهلِ الجحودِ والكفرانِ، "فجعلَ اللّهُ مُنْكِري البَعْثِ هَدَفًا لِسِهامِ التَّغْليطِ والافْتِضاحِ في وقْتِ النُّشورِ، فَلَمّا سَمِعَ المُؤْمِنونَ الَّذينَ أوتوا عِلْمَ القُرْآنِ وأشْرَقَتْ عُقولُهم في الحَياةِ الدُّنْيا بالعَقائِدِ الصَّحيحَةِ وآثارِ الحِكْمَةِ لَمْ يَتَمالَكوا ألّا يَرُدّوا عليهمْ غَلَطَهم رَدًّا يَكونُ عليهمْ حَسَراتٍ ألّا يَكونوا قَبِلوا دَعْوةَ الحَقِّ كَما قَبِلَها المُؤْمِنونَ"[1].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعُ﴾: (نفع) كلمةٌ تدُلُّ على خِلافِ الضَّرِّ، ونَفَعَهُ يَنْفَعُهُ نَفْعًا ومَنْفَعَةً، وانْتَفَعَ بِكَذا[2]، والمعنى المحوريُّ فائدةٌ تُنالُ منَ الشَّيءِ أو جدوى تعودُ منه، ومِن هذا الأصلِ الإفادةُ والتقويةُ، وجاءَ النَّفْعُ بمعنى ضدِّ الضَرّ في القرآنِ كُلِّه، وذلك في كلِّ شيءٍ بحَسَبِه[3]، والنَّفْعُ: ما يُستَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيراتِ[4]، وفي أسماءِ اللّهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 130 - 131.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نفع).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (نفع).

تَعالَى النافِعُ: وهو الَّذي يوصِّلُ النفْعَ إلى مَن يَشاءُ مِنْ خلْقه؛ حَيْثُ هو خالِقُ النفْعِ والضَّرِّ والخيْرِ والشرِّ[1].

2) ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾: (عذر) بِناءٌ صَحيحٌ لَهُ فُروعٌ كَثيرَةٌ، فالعُذْرُ مَعْروفٌ، وهو رَوْمُ الإنسانِ إصْلاحَ ما أُنْكِرَ عليه بِكَلامٍ، يُقالُ مِنْهُ: عَذَرْتُهُ فَأنا أعذِرُهُ عَذرًا[2]، والمعنى المحوريُّ اعتراض ما يحولُ دونَ المعتادِ من نفاذٍ[3]، فالعُذْر: الحُجَّةُ الَّتي يُعْتَذر بِها؛ والجَمعُ أعذارٌ، يُقالُ: اعْتَذَر فُلانٌ اعْتِذاراً وعِذْرةً ومَعْذُرةً ومَعْذِرةً[4]، والعُذْرُ: تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبَه، وذلك على ثلاثةِ أضربٍ: إمّا أنْ يقولَ: لم أفعلْ، أو يقولُ: فعلتُ لأجلِ كَذا، فيذكرُ ما يُخْرِجُه عن كونه مذنبًا، أو يقولُ: فعلتُ ولا أعودُ، ونحو ذلك من المقالِ، وهذا الثالث هو التّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً[5]، و﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾: هو قولُهم: ما علِمْنا أنَّ البعث كائنٌ، ولا أنّا نُبعثُ[6].

3) ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: (عتب) أصْلٌ صَحيحٌ، يَرْجِعُ كُلُّهُ إلى الأمْرِ فيهِ بَعْضُ الصُّعوبَةِ مِنْ كَلامٍ أو غَيْرِهِ، والعَتْبُ: المَوْجِدَةُ، تَقولُ: عَتَبْتُ على فُلانٍ عَتْبًا ومَعْتَبَةً، أيْ وجَدْتُ عليه[7]، والاسْتِعْتابُ: طَلَبُك إلى المُسيءِ الرُّجوعَ عَنْ إساءَته[8]، والتَّعتُّبُ والمعاتبةُ والعِتابُ كل ذَلِك مُخاطبَة المدلّين أخلّاءهم طالِبين حُسْنَ مراجعتهم ومذاكرةَ بَعضهم بَعْضًا ما كرهوه ممّا أكْسَبهم الموجِدةَ[9]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت: 24] أي: إن يَستقيلوا ربَّهم لم يُقِلْهم، أي: لم يردّهم إلى الدنيا مما هم فيه من العذاب لم يقلهم[10]، والمراد: ولا هم بمُزالٍ عَنهم المؤاخذة.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نفع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عذر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عذر).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (عذر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 528.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتب).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (عتب).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (عتب).
(10) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (عتب).

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إفحامُ المؤمنين لمنكري البعثِ وانقطاعُ أملِ الكفّار في التوبةِ والإعتابِ

بعدَ أنْ يستقلَّ الكفارُ مدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنْيا ويُقْسِمونَ على ذلكَ الأقسامَ المُتَجدِّدَةَ والأيْمانَ المُغَلَّظَةَ؛ إذْ بالمؤمنينَ العالمينَ يَرُدّونَ على منكري البَعث الحالفين بأنَّهم لم يلبثوا غيرَ ساعةٍ، فيقولونَ لَهُم: لقدْ لَبِثْتُم في علمِ اللّهِ وقضائِه وحكمِه مُدَّةً طويلةً في الدُّنْيا من يومِ خُلِقْتُم إلى أنْ بُعِثْتُم، ولكِنَّكُم كُنْتُم منكرينَ للبعثِ، فهذا يومُه الواقعُ الَّذي لا سبيلَ لإنكارِه، وبِه يَتَبَيَّنُ بطلانُ إنكاركِم إيّاه، غيرَ أنَّكُم تجهلونَ أنَّه حقٌّ واقعٌ، لتَفْريطِكم في النَّظرِ وغَفْلَتِكم عن أدلَّةِ ثُبوتِه واستِكبارِكم عن التصديقِ بِه، ثُمَّ أوضَحَ الذِّكرُ الحكيمُ أنَّهُ في يومِ القيامةِ لا ينفعُ هؤلاءِ الكافرينَ عُذْرُهم أو اعتذارُهم عمّا فعلوا، ولا تقبلُ مِنْهُم توبتُهم؛ لأنَّ وقتَ التَّوبةِ في دارِ الدُّنيا، وهي دارُ العملِ، أمّا الآخرةُ فهي دارُ الجزاءِ، لا وقت العملِ، فلا يُطلبُ منهُم الإعتابُ، وهو إزالةُ العَتَبِ بالتَّوبةِ والطاعةِ الَّتي تُزيلُ آثارَ الجريمةِ؛ لأنَّها لا تقبلُ منهُم، ولا يُعاتبونَ عَلى ذُنوبِهم، وإنَّما يعاقبونَ عليها أشدَّ العقابِ، فليست حالهم حال مَن يُستعتب ويرجع عمّا هو عليه.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

**بلاغة العطف في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:**

مُحاججةُ الكفّار وإفحامُهم من المهامِّ التي شرَّفَ اللهُ بها المؤمنين

عطفَ النَّظْمُ الحكيمُ هذهِ الجملةَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ على قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾، فَوصَلَ بينهُما للتَّوسُّطِ بين الكَمالين، إذْ كلتاهُما جملةٌ خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، وبينهما جامعٌ وهو الحديث عن مُدَّةِ اللبثِ، فقدِ انتقلَ السّياقُ من دعوى الكفّارِ بقلَّةِ مُدَّةِ لُبْثِهم في الدُّنْيا والبَرزخِ إلى ردِّ المؤمنينَ على الكُفّارِ، والظّاهرُ أنَّ المُؤْمنينَ يَسْمَعونَ تَحاجَّ المُشركينَ بَعضِهم مَعَ بَعضٍ فَيُبادِرونَ بالإنكارِ عَلَيهِم لِأنَّ تَغييرَ المُنكَرِ سَجيَّتُهُمُ الَّتي كانوا

عَلَيها، وفي هَذا أدَبٌ إسلاميٌّ، وهو أنَّ الَّذي يَسمَعُ الخَطَأ في الدّين والإيمانِ لا يُقِرُّهُ، ولَو لَم يَكُنْ هو المُخاطَبُ بِهِ[1].

**دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَقَالَ﴾:**

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ بفعلِ (القول) لِدَلالَتِه على الجهرِ بالحُجَّةِ والإعلانِ بالبيانِ؛ لما في أقوالِ هؤلاءِ الكُفّارِ من الكذبِ والتَّدليسِ والبُهْتانِ ومجافاةِ الحقِّ، وقد جاء الفعلُ في صيغةِ المُضيِّ للدلالةِ على تحقُّقِه يقينًا في علمِ اللهِ؛ وذلك لأنَّ وضعَ الماضي موضعَ المستقبلِ دلالةٌ على قُربِ الوقوعِ وتأكُّدِه.

نَصاعةُ حجةِ المؤمنين وتَحَقُّق حُدوثِها في علمِ اللهِ

**نكتةُ إسنادِ فعلِ القولِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:**

أُسندَ فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، ولهذا الإسنادِ إشارة بليغةٌ، وهي صدورُ القولِ الحقِّ من أهلِ الحقِّ المعتنقينَ له المؤمنينَ به، وهذا هو الأصلُ، على نقيضِ قولِ المشركين منكري البعثِ في الآيةِ السابقةِ، ففي إسنادِ القولِ للمؤمنين العالمينَ تشريفٌ لهُم، وتكريمٌ لأشخاصِهم، وإبرازٌ للحقِّ على لسانِ أهلِه.

فـي الإسـنـادِ تشريفٌ وتكريمٌ يناسب الجهر بكلمة الحقِّ

**علَّةُ التعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:**

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ التعبيرِ باسمِ الفاعلِ كأنْ يقول: (وقالَ المُؤمنونَ العالِمونَ) في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ لِما في التعبيرِ بالاسمِ الموصولِ من التَّخصيصِ والنَّصِّ والتعيينِ، وفيه كذلك لفتٌ للمقامِ، وتنبيهٌ على الوصفِ الذي لا يلتبس، وتوكيدٌ على اختصاصهم بهاتين الصفتين، دون منكري البعث، فضلًا عن إفادته هنا التّعظيم لشأنهم، وقَدِ اختُلِفَ في المراد بالَّذينَ أوتوا العِلْمَ، فَذهب بعضُهم

وصـفُ المؤمنين بـالـنَّـعـتِ المخصوصِ دليلٌ على اشتهارِهم بالعلمِ والإيمانِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

إلى أنَّهُم المَلائكَةُ، وذهبَ بعضٌ آخرُ إلى أنَّهُم الأنْبياءُ، وقال بعضُ المفسرين هُم عُلَماءُ الأُمَمِ، أو مُؤْمِنو هَذِهِ الأُمَّةِ، وهناك من رأى أنَّهُم جَميعُ المُؤْمِنينَ[1].

**دلالةُ التعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ في قوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾:**

الإيتاءُ أبلغُ منَ الإعطاءِ والإعطاءُ أظهرُ في التَّملُّكِ منَ الإيتاءِ

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيم في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ، وذلكَ "لأنَّ الإيتاء أقْوى مِنَ الإعْطاءِ في إثْباتِ مَفْعولِهِ، لِأنَّ الإعْطاءَ لَهُ مُطاوِعٌ يُقالُ: أعْطاني فَعَطَوْتُ، ولا يقال في الإتيان: أتاني فَأتَيْتُ، وإنَّما يُقالُ: آتاني فَأخَذْتُ، والفِعْلُ الَّذي لَهُ مُطاوِعٌ أضْعَفُ في إثْباتِ مَفْعولِهِ مِنَ الَّذي لا مُطاوِعَ لَهُ، لِأنَّكَ تَقولُ قَطَعْتُهُ فانْقَطَعَ فَيَدُلُّ على أنَّ فِعْلَ الفاعِلِ كانَ مَوْقوفًا على قَبولِ المَحَلِّ لَوْلاهُ لَما ثَبَتَ المَفْعولُ، ولِهَذا يَصِحُّ: قَطَعْتُهُ فَما انْقَطَعَ، ولا يَصِحُّ فيما لا مُطاوِعَ لَهُ ذَلِكَ، فَلا يَجوزُ أنْ يُقالَ: ضَرَبْتُهُ فانْضَرَبَ أو ما انْضَرَبَ، ولا قَتَلْتُهُ فانْقَتَلَ أو ما انْقَتَلَ؛ لِأنَّ هَذِهِ الأفْعالَ إذا صَدَرَتْ مِنَ الفاعِلِ ثَبَتَ لَها المَفْعولُ في المَحَلِّ والفاعِلُ مُسْتَقِلٌّ بِالأفْعالِ الَّتي لا مُطاوِعَ لَها فالإيتاءُ إذَنْ أقْوى مِنَ الإعْطاءِ"[2]، كما أن بينهما فرقًا من وجهٍ آخرَ، وهو أنَّ في الإعطاءِ دليلَ التَّمَلُّكِ دونَ الإيتاءِ[3]، ولذلك فقد عبَّر في هذا السياقِ بالإتياء دون الإعطاء تَنْبيهًا عَلى شُكْرِ مَن آتاهُموهُ[4].

**لطيفةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعولِ:**

تسهيلُ مأخذِ العلمِ والإيمانِ على أهلِ الحقِّ

عبَّرَ النَّظْمُ الحكيم في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ بالفعل ﴿أُوتُواْ﴾ بالبناء للمفعول، إشارَةً إلى تَسهيلِ أخذِهِ عَلَيهِم مِنَ الجَليلِ والحَقيرِ، وأتبَعَهُ ما لا يُشْرِقُ أنوارَهُ ويُبرِزُ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 452.
(2) الزركشي، البرهان: 4/ 85.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 131.

ثِمارَهُ غَيرُهُ، والتعبير بـ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إشارَةً إلى تَفَكُّرِهِمْ في جَميعِ الآياتِ الواضِحَةِ والغامِضَةِ مُقْسِمينَ كَما أَقْسَمَ أولئِكَ مُحَقِّقينَ مَقالَهم مواجِهينَ لِلْمُجْرِمينَ تَبْكيتًا وتَوْبيخًا مُؤَكِّدينَ ما أَنْكَرَ أولَئِكَ المجرمينَ[1].

**نكتة تقديم: ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾ على ﴿وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾:**

بدأ نزول القرآن الكريم بالدّعوة إلـــى وسيـلـة العلم

أفاد تعريف ﴿ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ هنا العهد الذِّهنيّ، فالعلم هنا هو الذي يدلُّهم على ربِّهم ويُوصلهم إلى مرضاته، والإيمان هو الذي دعاهم ربُّهم إليه من خلال كتبه وإرسال رسله، وفي تقديم العلم على الإيمان إشارة إلى أنّ هذا الإيمان بأركانه المختلفة لا يقوم إلّا بهذا العلم؛ فهو شعار هذا الدّين وذروة سنامه، وهذه السّورة على وجه الخصوص قد اعتنت بالعلم وبيّنت أثره في الاستدلال على الله تعالى من خلال آلائه في الكون، والقرآن الكريم يحثّ دائمًا على الإيمان المستند إلى البيّنات وإلى إعمال العقل والبعد عن التّقليد الأعمى.

**دلالة التأكيد بـ(اللام) و(قد) في ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ﴾:**

تأكيدُ المؤمنين قولَهم دليلٌ على عمقِ إيمانِهم وأصالةِ علمِهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ﴾ أكدَّ النَّظْمُ الحكيمُ - على لسانِ المؤمنينَ - إحاطةَ الكفّارِ بقضيةِ لبثهم ومعرفتَهم بها، فاستعمل (اللام) و(قد)، وذلك لأحدِ أمرين: **الأولُ:** قَسَمُ المشركين على ظنِّهم قلَّةَ مُدَّةِ لُبثِهم ومبالغتُهم في ذلك، فاقتضى مبالغةَ المؤمنين في توكيدِ إحاطةِ علمِ الله بلُبثِ هؤلاء المعاندينَ ووصولِ الأدلةِ لهُم، **والثاني:** شِدَّةُ وثاقة المؤمنين من قولِهم، وعمقُ إيمانهم، وأصالةُ علمهم، فكان التوكيدُ باللام وقد مناسبًا لهذين الغرضين، وفِعْلُ ﴿لَبِثۡتُمۡ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في حَقيقَتِه، أيْ مَكَثْتُمْ، أي اسْتَقْرَرْتُمْ في القُبورِ، والخَبَرُ مُستعمَلٌ في التَّحْزينِ والتَّرْويعِ باعْتِبارِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 131.

ما يَرِدُ بَعْدَهُ مِنَ الإفْصاحِ عَنْ حُضورِ وقْتِ عَذابِهِمْ[1]، وفي ذلك تخويفٌ لهم في الدُّنيا لعلهم يرتدِعون عن الكفرِ والتكذيبِ.

**بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ و﴿لَبِثْتُمْ﴾:**

كشف زيف الكُفّارِ وافتضاح كذبهم ودعواهم

بينَ قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾ وقولِه جلَّ شأنُه: ﴿مَا لَبِثُواْ﴾ طباقُ السلبِ، إذ نَفَى الكافِرونَ اللبثَ إلا ساعةً واحدةً، في حينِ أثبتَ المؤمنون لُبثَهم في علمِ اللهِ وبلوغَ الأدلَّةِ لَهُم، وتكمنُ بلاغةُ الطباقِ في هذينِ الموضعينِ في كشفِ زيفِ الكفّارِ وفضحِ كذبِهم وإفكِهم على رؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامةِ.

**نكتةُ تقييدِ لبثِهم بالجارِ والمجرورِ: ﴿فِي كِتَٰبِ﴾:**

علمُ اللهِ وقضاؤُه محيطٌ بالكفّارِ فلا يغيبونَ عنهُ طَرْفةَ عَينٍ

قيَّدَ النَّظْمُ الحكيمُ فعلَ اللبثِ - في قولِ المؤمنينَ - بالجارِ والمجرورِ ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، والمرادُ: في عِلْمِهِ وقَضائِهِ، أو ما كَتَبَهُ وعَيَّنَهُ سُبْحانَهُ، أو اللَّوْحِ المَحْفوظِ، أوِ القُرْآنِ[2]، و﴿فِي﴾ من قَوْلِهِ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ للتَّعْليلِ، أيْ لَبِثْتُمْ إلى هَذا اليَوْمِ، ولَمْ يُعَذَّبوا من قَبْلُ لِأجْلِ ما جاءَ في كِتابِ اللهِ من تَهْديدِهِمْ بِهَذا اليَوْمِ وإمهالِهِم إلى ذلك الوقتِ، أيْ: لَقَدْ بَلَغَكم ذَلِكَ وسَمِعْتُموهُ فَكانَ الشَّأنُ أنْ تُؤْمِنوا بِهِ ولا تَعتَذِروا بِقَولِكم ما لَبِثْنا غَيرَ ساعَةٍ[3].

**دلالةُ التعبيرِ بالكتابِ وإضافته:**

تفخيمُ شأنِ الكتابِ وما تضمنه من وعد بالبعث

تعدَّدَتْ أقوالُ العلماءِ في دلالة التعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فقالَ بَعْضُهُمْ: هو على التَّقديمِ والتأخيرِ؛ كأنه قال: (الذين أوتوا العلمَ في كتابِ اللهِ)، أي: قالَ الّذينَ أوتوا العلمَ بكتابِ اللهِ والإيمانَ بِه: لقدْ لَبِثْتُم إلى يومِ البعثِ، فهذا يومُ البعثِ، وقالَ بَعْضُهُمْ: قال الذين أوتوا العلمَ والإيمانَ: لقدْ لبثتم في علمِ اللهِ في الدُّنْيا إلى يومِ البعثِ، فهذا يومُ البعثِ، وفي قول آخر: وقالَ الذينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 66.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

أوتوا العلمَ والإيمانَ: لقدْ لَبِثْتُم فيما كَتَبَ اللّهُ لَكُم من الآجالِ إلى انقضاءِ آجالِكم وفنائِها[1]، ففي تعدُّدِ المعاني إعجازٌ بليغٌ وسبيلٌ من سبل إظهارِ البلاغةِ القرآنيةِ، وأُضيفَ (الكتاب) إلى أعظمِ أسماءِ اللّهِ ﷻ؛ لإرادةِ تعظيمِ أمرِ الكتابِ، ولازمُ ذلك تفخيمُ شأنِ القضيةِ التي تدورُ حولَها الآياتُ، وهي قضيةُ البعثِ، وإثباتُ محوريَّتِها في التصورِ الإسلامي، فمِنْ شأنِ القضايا المحوريَّةِ أن يُصَرِّحَ النَّظْمُ الحكيمُ بنسبَتِها لأعظمِ أسماءِ اللّهِ ﷻ.

**دلالة التعريف بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلْبَعْثِ﴾:**

أثار المشركون زوابع الشّكّ والرّيبة حول البعث في كلّ زمانٍ ومكانٍ

أفاد تعريف كلمة ﴿ٱلْبَعْثِ﴾ بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ العهد الذّهنيّ في الأولى، فهو يوم القيامة الذي كانوا ينكرونه، وهو اليوم الذي أثار حوله المشركون في كلّ زمانٍ ومكانٍ زوابع الشّكّ والرّيبة، إذ كيف يُبعث من كان رميمًا من جديد، وأمّا تعريف كلمة ﴿ٱلْبَعْثِ﴾ في المرَّة الثّانية فهو للعهد الصّريح.

**معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾:**

تَوعُّدُ المشركين بهولِ المفاجأةِ يومَ البعثِ

الفاءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ فَصيحَةٌ، كَأَنَّهُ قيلَ: إنْ كُنْتُمْ مُنْكِرينَ البَعْثَ فَهَذا يَوْمُهُ، أيْ فَنُخْبِرُكم أنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ بُطلانُ إنْكارِكم، فأفْصَحَتْ عَنْ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ، وتُفيدُ مَعْنى المُفاجَأةِ، أيْ: إذْ كانَ كَذَلِكَ، فَهَذا يَوْمُ البَعْثِ وهَذا تَوْبيخٌ لَهم، وتَهْديدٌ وتَعْجيلٌ لِإساءَتِهِم بِما يَتَرَقَّبُهم مِنَ العَذابِ، والِاقْتِصارُ عَلى ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ دون بيانِ ما ينتظرُهم ليَتَوقَّعوا كُلَّ سوءٍ وعَذابٍ[2].

**دلالةُ التعبيرِ بالإشارةِ في ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾:**

أفادَ التعبيرُ باسم الإشارةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ التنصيصَ والتخصيصَ، أيْ: فهذا هو "اليومُ الَّذي آمَنّا بِهِ وكُنتُم

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 293.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

تُنكِرونَهُ، قد كانَ طِبقَ ما كُنّا نَقولُهُ لَكُمْ، فَقَدْ تَبَيَّنَ بُطْلانُ قَوْلِكُمْ، وكُنتُم تَدَّعونَ الخَلاصَ فيهِ بِأنْواعٍ مِنَ التَّكاذيبِ قَصْدًا لِلْمُغالَبَةِ، فَما كُنْتُمْ صانِعينَ عِنْدَ حُضورِهِ فاصْنَعوهُ الآنَ، تَنْبيهًا لَهم عَلى أنَّهُ لا فائِدَةَ في تَحْريرِ مِقْدارِ اللُّبْثِ في الدُّنْيا ولا في البَرْزَخِ، وإنَّما الفائِدَةُ في التَّصْديقِ بِما أخْبَرَ بِهِ الكِتابُ حَيْثُ كانَ التَّصْديقُ نافِعًا، ولَمّا كانَ التَّقْديرُ: قَدْ أتى كَما كُنّا بِهِ عالِمينَ، فَلَوْ كانَ لَكم نَوْعٌ مِنَ العِلْمِ لَصَدَّقْتُمونا في إخْبارِنا بِهِ فَنَفَعَكم ذَلِكَ الآنَ"[1].

في التنصيصِ على يومِ البعثِ تشنيعٌ بكفرِ المشركينَ وكذبِهم

### نكتةُ الإظهار في موضع الإضمار:

كرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ كلمة ﴿ٱلْبَعْثِ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾، وعَدَلَ عن مقتضى الظاهرِ بأن يكون الكلامُ (فهذا هو اليوم)؛ لأهميةِ تأكيدِ التنصيص على قضيَّةِ البعثِ، وللترهيبِ بها، والتخويفِ من التكذيبِ بها.

في تكرار (البعث) تأكيدٌ وترهيبٌ وتخويفٌ

### دلالة الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾:

أفادتْ (لكن) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاسْتِدْراكَ، وهو اسْتِدْراكٌ عَلى ما تَضَمَّنَتْهُ جُمْلَةُ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، أيْ: لَقَدْ بَلَغَكم ذَلِكَ، وكانَ الشَّأْنُ أنْ تَسْتَعِدّوا لَهُ، ولَكِنَّكم كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ، أي: لا تَتَصَدَّونَ لِلعِلمِ بِما فيهِ النَّفْعُ، بَلْ كانَ دَأبُكُمُ الإعراض عَن تَصديقِ الرَّسولِ ﷺ[2]، وأُسند ضميرُ الخطابِ في عبارة ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ﴾ إلى ضميرِ المخاطبينَ، وهُمُ الكفّارُ منكرو البعثِ؛ للتبكيتِ والتوبيخ والتشنيع، فلم يقتصرِ المؤمنونَ على بيانِ الحقِّ بالجملةِ السابقةِ بتقريرِ حقيقةِ البعثِ، ولكنَّهُم استمرّوا في تقريعِ منكري البعثِ وتعنيفِهم في عرصاتِ القيامةِ على رؤوسِ الأشهادِ جزاء تكذيبِهم وعنادهم.

إعراضُ المشركينَ عنِ التَّعَلُّمِ من رسولِ اللهِ وتصديقِ ما جاءَ به أورَدَهُم المهالكَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 131.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 131.

### دلالةُ التعبيرِ بـ(الكونِ):

إعراض المشركين ونفورهم من العلمِ الحقِّ

عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه جَلَّ ثناؤُه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ عنِ التَّعبيرِ على مُقْتَضَى الظّاهرِ بأنْ يكونَ النَّظْمُ: (ولكِنَّكُم لا تعلمونَ)، إذا كان المقصودُ مجرّدَ الدّلالةِ على إثباتِ جَهْلِهم وتعاميهم عن طريقِ العلم، أو (ولَكِنَّكُم لم تَعْلموا) إذا كان المرادُ إثبات تفريطهم في الدُّنْيا، ولكنّ البيانَ القُرآنيَّ أتَى بزيادةِ الفعلِ ﴿كُنتُمْ﴾ على أصلِ المعنى، لما في التعبيرِ بـ(الكونِ) من تأكيدٍ ومبالغةٍ على تعاميهم عن الحقِّ وإعراضِهم عنه ونفورهم عن طريق العلم، ولِتَفْريطِهم في طَلَبِ الحَقِّ واتِّباعِه[1]، حتى صار إنكارُهم للعلم (كَوْنًا) هو كالجِبِلَّةِ لَهم في إنْكارِهم لَهُ[2]، فَتَبَلَّدَتْ نُفوسُهم وقَسَتْ قلوبُهم وكَسَدَتْ عقولُهم.

### أثرُ تسليطِ النَّفيِ على المضارعِ:

التَّصَدّي لِلتَّعَلُّمِ وسيلَةٌ لِحُصولِهِ

جاءتْ ﴿لَا﴾ نافيةً في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وتسلطَ النَّفْيُ على العلمِ، ولكنْ ليس المقصودُ مجرَّدَ الإشارَةِ إلى جهلهم، بل المرادُ مِن التَّعْبيرِ بِنَفْيِ العِلْمِ، وقَصْدِ نَفْيِ الاهْتِمامِ بِهِ والعِنايَةِ بِتَلَقّيهِ، الإشارَةُ إلى أنَّ التَّصَدّيَ لِلتَّعَلُّمِ وسيلَةٌ لِحُصولِهِ[3]، وجاءَ الفعلُ في ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في صيغةِ المُضارعة للدَّلالةِ على تجدُّد جهلِهم واستمراره، ولاستحضارِه في صورةِ الجهلِ الذي لا يزول.

### بلاغَةُ حذفِ المفعولِ به من: ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

إثبات جهل المشركين وانتفاء العلم عنهم

حذفَ النَّظْمُ الحكيمُ المفعول به في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويمكن تقديره بمحذوف هو (البعث)، أي: ولكنكم كنتم لا تعلمون البعث، ويمكن عدم تقدير مفعول على معنى،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 17/ 205.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 132.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.

لم يكونوا من أولي العلم، وهو أبلغ[1] في الدلالةِ على جهلهم وانتفاء العلمِ عنهم، فحذف المفعول هنا للتّعميم.

**بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ و﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾:**

بين قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ وقوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ طباقُ السلبِ، إذ أثْبَتَتِ الآيةُ الكريمةُ العلمَ للمؤمنينَ، وأشارت بالبناءِ للمفعولِ إلى سهولةِ العلمِ عليهم ويُسْرِه وسلاسته، في حين سلبتِ الآيةُ من منكري البعث أهليَّتَهم للعلم وجدارتَهم بالتصدي له والفقهَ فيه، وأثبتت لمنكري البعثِ تعاميهم عن الحقِّ، وإعراضهم عنه، ونفورهم عن طريق العلم، وتَفْريطهم في طَلَبِ الحَقِّ واتِّباعِه، وفي ذلك الطِّباقِ إبراز للفارق الجوهريِّ بين المؤمنين العالمين ومنكري البعثِ الجاهلين المتعامين عن الحقِّ.

**اتِّباعُ العلمِ الحقِّ هو الفارقُ الجوهريُّ بينَ المؤمنينَ ومنكري البعثِ**

**مَعنَى (الفاءِ) في قوله: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾:**

تعدَّدَتْ أقوالُ العلماء في معنى الفاءِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾، فذهب البقاعيُّ إلى أنَّها سببيَّةٌ، ذلك أنَّه لَمّا كانَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الروم: 15] في أشْكالِها مِنَ الآياتِ دالًّا عَلى أنَّ هَذِهِ الدُّنْيا دارُ العَمَلِ، وأنَّ دارَ الآخِرَةِ دارُ الجَزاءِ، وأنَّ البَرْزَخَ هو حائِلٌ بَيْنَهُما، فَلا يَكونُ في واحِدَةٍ مِنهُما ما لِلْأُخْرى، سَبَّبَ عَنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ أيْ إذْ تَقومُ السّاعَةُ[2]، وأشار القنوجي إلى أنَّها فاءُ التفصيلِ، لِما يُفْهَمُ مما قبلها، من أنَّه لا يُفيدُهم تقليلُ مُدَّةِ اللُّبثِ ولا النسيانِ، أو هو جواب شرط مقدر[3]، وذهبَ الطاهرُ ابن عاشور إلى أنَّ الفاء ههنا تَفْريعٌ عَلى جُمْلَةِ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾[4].

**الدُّنْيا دارُ العَمَلِ والآخِـرَةُ دارُ الجَزاءِ والبَرْزَخُ حائِلٌ بَيْنَهُما**

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 118.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 132.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 10/ 268.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.

### بلاغة الإيجاز في التعبير بـ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾:

بيان عدم انتفاع المشركين وخسارتهم يومَ البعث

عبَّر النَّظْم في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بالظرفِ (يَوْمَئِذٍ)، والمرادُ: يوم إذْ تَقومُ السّاعَةُ، وتَقَعُ هَذِهِ المُقاولَةُ؛ مِن إقْسامِ الكُفّارِ، وقَوْلِ أولي العِلْمِ لَهم[1]، (يومئذٍ): ظرفُ زمانٍ مُضافٍ إلى مثله، أي: إذا قامتِ الساعةُ، ويقولُ الَّذينَ أوتوا العلمَ تلكَ المقولةَ، متعلقٌ بـ﴿يَنفَعُ﴾، والتنوين عِوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ، تُقدّر بحسب ما سبقها، والتّقدير: فيوم البعث، وكُسرتْ (ذال) (إذ) لالتقاءِ السّاكِنَيْن: سُكونِ الذّالِ وسُكونِ التنوينِ[2].

### نكتةُ تقديمِ الظَّرفِ على الفعلِ المضارع المنفي:

غرضُ نفي النَّفْعِ مُتَعَلِّقٌ بالآخرةِ وهو أمرٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ

تقدَّم الظرفُ (يَوْمَئِذٍ) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ للاهتمامِ بِه؛ إذ يومُ البعثِ هو محورُ الحديثِ كلّه، وعليه مدارُ المعنى المقصودِ من مجازاةِ هؤلاءِ الظالمينَ المكذِّبينَ وعدمِ انتفاعِهم بما قدَّموه من معاذيرَ، وأُتبع بنفي النفعِ، أيْ: لا يَنْفَعُهُمُ العِلْمُ بِالقيامَةِ ولا الاِعْتِذارُ يَوْمَئِذٍ[3]، ووردَ التعبيرُ هنا بصيغةِ المضارعةِ الدالةِ على استحضارِ الصورةِ كأنَّها مشهدٌ حيٌّ يراه المُتَدبِّرُ بعينه، وهذا أوقعُ في التأثيرِ، فضْلًا عن دلالته على الحالِ والاستقبالِ؛ لأنَّ النفعَ المقصودَ هنا هو نفعُ الآخرةِ بنجاةِ النَّفْسِ من العذابِ[4]، وهو نفعٌ فيما يُسْتَقْبَلُ منَ الزَّمانِ، أمّا نَفْعُ الدُّنْيا الفائتُ، فلا يقعُ عندَ مجيءِ آياتِ يومِ القيامَةِ.

### تَوْجيهُ القِراءاتِ في الفعلِ ﴿يَنفَعُ﴾:

من الإعجازِ البلاغيِّ استيعابُ القرآنِ لأوجهٍ كثيرةٍ من وجوهِ العربيةِ

قَرَأَ الجُمْهورُ ﴿تَنفَعُ﴾ بالمُثَنّاةِ الفَوْقيَّةِ، وقَرَأَهُ حَمْزَةُ وعاصِمٌ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بِالتَّحْتيَّةِ ﴿لَّا يَنفَعُ﴾ وهو وجْهٌ جائِزٌ؛ لِأَنَّ (مَعْذِرَة)

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 498.
(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 21/ 118.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 49.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 186.

مَجازيُّ التَّأنيثِ، ولِوُقوعِ الفَصْلِ بَيْنَ الفِعْلِ وفاعِلِهِ بِالمَفْعولِ[1]، وفي ورودِ القراءة بالوجهين سبيلٌ لإظهار استيعاب القرآن لكثيرٍ من الوجوهِ الجائزةِ في العربيةِ، وتأكيدٌ لعرَبيَّة النظم الحكيم.

### علةُ التعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

وصفُ مُنكِري البعثِ بالنَّعتِ المخصوصِ دليلٌ على اشتهارِهم بِهِ

عبّرَ النَّظمُ الحكيمُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾؛ لِما فيهِ من التَّخصيصِ والنَّصِّ والتَّعيينِ، وفيه كذلك لفتٌ للمقام، وتنبيهٌ على الوصف الذي لا يلتبس، وتوكيدٌ لاختصاصهم بصفة الظلم، فضلًا عن إفادة الاسم الموصول هنا معنى الذّمّ والقدح لهم.

### نكتةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

الظُّلمُ هو الإشراكُ باللَّهِ لأنَّهُ جامِعٌ لِفُنونِ الظُّلمِ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ مُنكري البعث بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، والمُرادُ بهم: المُشْرِكونَ الَّذينَ أقْسَموا ما لَبِثوا غَيْرَ ساعَةٍ، فالتَّعْبيرُ عَنْهم بالَّذينَ ظَلَموا إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ لِغَرَضِ التَّسْجيلِ عليهمْ بِوصْفِ الظُّلْمِ وهو الإشْراكُ باللهِ؛ لِأنَّهُ جامِعٌ لِفُنونِ الظُّلْمِ، فَفيهِ الاعْتِداءُ عَلى حَقِّ اللهِ، وظُلْمُ المُشْرِكِ نَفْسَهُ بِتَعْريضِها لِلْعَذابِ، وظُلْمُهُمُ الرَّسولَ ﷺ بِالتَّكْذيبِ، وظُلْمُهُمُ المُؤْمِنينَ بِالاعْتِداءِ عَلى أمْوالِهِمْ وأبْشارِهِمْ[2].

### نكتةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

التَّشْنيعُ عَلى مُنكري البعثِ بِظُلْمِهِم ووضعِهِم الأمورَ في غَيرِ موضِعِها

قدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ المفعولَ بِهِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ على الفاعلِ ﴿مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾؛ للاهتمامِ بذكرِ ما أدَّى بهم إلى الخسرانِ وعدمِ النفعِ، وهو ظُلْمُهم ومجاوزتُهم الحدّ في الإنكارِ والتَّكذيبِ والعصيانِ، فضلًا عنْ كونِ السّياقِ هَهُنا قائمٌ على التوبيخِ والتقريعِ، والتهديدِ والوعيدِ لكلٍّ من

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.

أنكرَ البعث وكذَّبَ بالآخرةِ، فكانَ في التقديمِ إثارةٌ لانتباهِ هؤلاءِ المُكَذِّبينَ لعلَّهُم يرجعونَ عن غيِّهم وضَلالِهم.

**دلالةُ الإضافةِ في الفعل ﴿مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾:**

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بفعلِ المعذرةِ، والمَعْذِرَةُ: اسْمُ مَصْدَرِ (اعْتَذَرَ)، إذا أبْدى عِلَّةً أو حُجَّةً ليَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ مُؤاخَذَةً عَلى ذَنْبٍ أو تَقْصيرٍ، وهو مُشْتَقٌّ مِن فِعْلِ (عَذَرَهُ)، أي: لَمْ يُؤاخِذْهُ عَلى ذَنْبٍ أو تَقْصيرٍ لِأجْلِ ظُهورِ سَبَبٍ يَدْفَعُ عَنْهُ المُؤاخَذَةَ بِما فَعَلَهُ، وإضافَةُ مَعْذِرَةٍ إلى ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تَقْتَضي أنَّ المَعْذِرَةَ واقِعَةٌ مِنهم، فكأنّهم سيحاولون الاعتذارَ في يومِ البعثِ للنجاةِ من العذابِ الأليمِ، ثُمَّ يَجوزُ أنْ تَكونَ الإضافَةُ لِلتَّعْريفِ بِمَعْذِرَةٍ مَعْهودَةٍ، فَتَكونُ هي قَوْلُهم: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾ كَما تَقَدَّمَ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعْريفُ لِلْعُمومِ كَما هو شَأْنُ المَصْدَرِ المُضافِ، أيْ لا تَنْفَعُهم مَعْذِرَةٌ يَعْتَذِرونَ بِها مِثْلَ قَوْلِهِمْ: ﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106] وقَوْلِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38][1].

لـيـسَ لـهـؤلاءِ المُكَذِّبينَ حُجَّةٌ يـدفـعـونَ بها تـكـذيـبَـهـم وإنـكـارَهـم للبعثِ

**معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَلَا هُمۡ﴾:**

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ قولَ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ على قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾، فوصَلَ بينَهُما للتَّوسُّطِ بين الكمالين، إذْ كِلتاهُما جملةٌ خبريةٌ لفظًا ومعنى، ووُجِدَتِ المُناسَبَةُ للعطفِ بينهُما، وهي تأكيدُ المعنى واتصالُه، فالجملتانُ تؤكِّدانِ نفيَ النفعِ وانتفاءَ المعذرةِ عن هؤلاءِ المكذبينَ مُنكري البعثِ، وأنَّهم لا يثبون في العذابِ المُهينِ.

تأكيدُ نفيِ النفعِ وانتفاءِ المعذرةِ عـنْ هـؤلاءِ المكذِّبينَ مُنكري البعثِ

**دلالةُ التعبيرِ بلفظِ الاستعتاب:**

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بفعلِ الاستعتابِ، وهو طَلَبُ العُتْبى، وهي الاسْمُ مِنَ الإعْتابِ، بِمَعْنى إزالَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.

العَتَب كالعَطاء والاسْتِعْطاء، أيْ: لا يُطْلَبُ منهم إزالَةُ عَتَبِ اللَّهِ تعالى، والمُرادُ بِهِ غَضَبُهُ سُبْحانَهُ عليهمْ بالتَّوْبَةِ والطّاعَةِ، فَإنَّهُ قَدْ حَقَّ عليهمُ العَذابُ، وحاصِلُ المَعْنى أنَّهُم مِنَ الإهْمالِ، وعَدَمِ الالتِفاتِ إلَيْهِمْ بِمَنزِلَةِ مَن لا يُؤَهَّلُ لِلْعَتَبِ[1]، وقد جاءَ الخبرُ جملة فعليَّةً للدَّلالَة على نفي الاستعتاب وإن تكرَّر منهم مراتٍ عديدة، ولتأكيدِ دوام النفي أبدًا، والتعبير بصيغة المضارعةِ فيه استحضار للصورة التي يكونُ عليها هؤلاء المكذبونَ، فَكأنَّ المتلقي يرى صورتَهم ماثلةً أمامَ عينَيه وهُم مُهانونَ لا يُؤْبَهُ لَهُم جزاءً لتكذيبِهم وإنكارِهم حقيقةَ البعثِ.

لا يُطْلَبُ مِن منكري البعث إزالَةُ عَتَبِ اللَّهِ تَعالى وغضبه بل مأواهُم النارُ

**دلالةُ إسنادِ الفعلِ ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾:**

أُسندَ الفعلُ ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ إلى ضمير الجمع في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾، إشارةً إلى جماعة المكذِّبين منكري البعث، وقد آثرَ النَّظْمُ القرآنيُّ إسنادَ الفعلِ إلى جماعَتِهم للدَّلالة على أنَّهم جميعًا يحاولونَ الاسْتِعْتابَ والتَّرَجّيَ على اختلافِ مَقاماتِهم في الدنيا من عزيزٍ أو ذليلٍ، أو شريفٍ أو حقيرٍ، فلا يُستجابُ لأحدٍ منهم، بل هم في الذُّلِّ والهوان سواءٌ، فمهما اجتمع الكفّارُ للاستعتاب والترجي فلن يقبل.

مهما اجتمعَ الكفارُ للتَّرجي والاستعتابِ فلن يُقبلَ منهُم

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

**العُذرُ والمَعْذِرَةُ:**

العُذْرُ هو رَوْمُ الإنْسانِ إصْلاحَ ما أُنْكِرَ عليه بِكَلامٍ، وهو الحُجَّةُ الَّتي يُعْتَذر بِهَ، وتحرّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه، وذلك على ثلاثةِ أضربٍ: إمّا أنْ يقولَ: لم أفعلْ، أو يقول: فعلتُ لأجلِ كَذا، فيذكرُ ما يُخْرِجُه عن كونه مذنبًا، أو يقول: فعلتُ ولا أعودُ، ونحو ذلك من المقالِ، وهذا الثالث هو التّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً[2]، والمَعْذِرَةُ مصدرٌ ميميٌّ للفعلِ (اعتذر)، على وزنِ (مَفْعَلَة)، أقيمَ

المصدرُ الميميُّ أقوى في الدلالةِ على الواقعِ منَ المصدرِ الصَّريحِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 20/ 498.
(2) الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن: (عذر).

مقامَ الاعتذارِ، وذلكَ لأنَّ التعبيرَ بالمصدرِ الميميِّ في دلالَته على الحدثِ أقوى من دلالةِ المصدرِ العام، إذ التعبيرُ بالمصدرِ الميميِّ يُصَوِّرُ المعنى واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجودِ، وفيه كذلك معنَى الاستمرارِ والتجددِ، أمّا المصدرُ الصَّريحُ فيُصَوِّرُ الحدثَ مُجَرَّدًا عن الواقعِ، والتعبيرُ بالمصدرِ المُؤَوَّلِ يدل على شدةِ رغبتِهم في استفراغِ الوُسعِ في الاعتذار، ولذا فقدْ عبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في هذا السياقِ بالمعذرةِ إشارةً إلى قولهم: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾: أي: ما علمْنا أنَّ البعث كائنٌ، ولا أنّا نُبعثُ[1].

### الاستعتاب والإعذار:

الاستعتابُ الأمْر فيهِ بَعْضُ الصُّعوبَةِ مِنْ كَلامٍ أو غَيْرِهِ، والعَتْبُ: المَوْجِدَةُ، والاسْتِعْتابُ: طَلَبُك إلى المُسيءِ الرُّجوعَ عَنْ إساءَته، والتَّعتُّبُ والمعاتبةُ والعِتابُ كل ذَلِك مُخاطبَة المدلّين أخلّاءَهم طالبين حُسْنَ مراجعتهم ومذاكرةَ بَعضهم بَعْضًا ما كرهوه ممّا أكسَبهم الموجدةَ[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ٢٤﴾ [فصلت: 24] أي: إن يَستقيلوا ربَّهم لم يُقِلْهم، أي: لم يردّهم إلى الدنيا ممّا هُم فيه من العذابِ[3]، وأمّا الإعذارُ فهو إظهارُ المَعْذِرَةِ عن المكروهِ، ففي العذرِ يتوجّه الفعلُ إلى قبحِ العملِ وكونِه مكروهًا وفي معرض اللوم[4]، وفي الآية الكريمةِ نَفَى البيانُ القرآنيُّ طلبَ العتبِ من منكري البعث يوم القيامة، والمرادُ نفيُ الاستعتابِ من اللّه سبحانَه.

**الاسْتِعْتابُ طَلَبُك إلى المُسيءِ الرُّجوعَ والإعذارُ قبولُ العذرِ**

(1) وابن جرير، جامع البيان: 18/ 528.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (عتب).
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (عتب).
(4) حسين المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: (عذر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»